القصائد

بقلم : محيي الدين صبحي

****

ليت شعري يا عبد الباسط ، وقد انهيت عمرك غريبا ، اية خمرة كانت في كرمتك الخصيبة ! يا من قضيت نائيا وحيدا ، هل وجدت في افريقيا ما جعل الموت يحلو في عيونك ؟ كنت أمل الشعر في سوريا . نحن هنا فقراء . فقراء بعدما خسر الشعر ذراه ، فسكت ابو ريشة ، وابتعد البدوي ، وانصرف نزار الى نظم الاغاني ! بقيت انت تجتاز الذرى ، وتحلق في كل قصيدة جديدة في جنات من الشعر جديدة . لم يكن الشعر عندك الا جهدا وغوصا في أغوار النفس وخلقا للجمال .

هل تذكر ؟ ما كنا نسمر على كأس الا و « القصيدة السوداء » هي نقلنا وفاكهتنا :

لا تعجل ، فالليل أندى وأبرد يا بياض الصباح، والحسن أسود
ليلتي ليلتان في الحلك الرطب فجنح ولى ، وجنح كأن قد
ست ، نحن العبيد في مجدك الاسود ، أهل البياض ، نشقى ونسعد
وحوالي فرقيك في مسحة الطرة شيء كأنه يتوقد
كان أولى لو كنت آخذ بالخصر ولكن يكاد بالكف يعقد ...

وكانت أناقة « أمين نخلة » وجودة تنقلاته وطراوة النغم في شعره تؤجج خيالنا فنشتعل وجدا بالحسن الاسود . ولا ابالغ اذا قلت ان هذه القصيدة لونت رؤانا عن افريقيا ، وكانت احدى دوافع عبد الباسط الى السفر ، كما ان امين نخلة ، بما يحوي شعره من جمال لفظي ، كان مثار تحد لعبد الباسط ، اذ ان كبار شعراء سوريا ـ اجمالا ـ كثيرو العناية باللفظة وصقلها والتأني باستعمالها في مواضعها .

وان كانت أسلوبية عبد الباسط تلتقي مع أمين نخلة بتقنية الالفاظ والاعتماد على اللفظة الشعرية ذات الظل والنغم والماضي الشعري الطويل ، فانها تختلف عنها في ان شاعرنا شاب حديث مثقف يطل من نفسه على أزمة حياته والعالم ـ وهذا ما لا يخطر ببال امين نخلة وأصحابه ـ ويظهر اختلاف الاسلوبين في كون امين يعتبره غاية في حين ان الصوفي ينظر اليه ويستخدمه كأداة لرسم صور شفافة توحي بالمعاني التي يفكر فيها ، والقيم التي يطرحها ، والازمة التي يصدر عنها .

وقصيدة « مكادي » صورة لكل هذه العناصر التي ينسج منها الصوفي شعره . فشخصية الشاعر هي الانسان على صورة جواب خائب يائس يلجأ الى البحر لان الصخر والعقم أفرغا قلبه وروحه .. لكن رحلته فشلت ولم تحقق الهدف منها ، لقد تغرب وارتحل بحثا عن جمال اسطوري ، يعيد اليه الف ليلة وحكايا شهرزاد ، فلم يحدث شيئا في البحر ولا في افريقيا ... يتخلل ذلك تصوير للبحر وانوائه وزرقته وأبعاده ، وتصوير للجهد الضائع وخراب الروح والتمرد على الصخر والعقم ثم الانهيار . بعد ذلك يأتي وصف جمال مكادي وغوى فتنتها .. والشاعر يستخدم لهذه الغايات رموز سيزيف وشهرزاد ، ويقدم البحر كأرض واسعة للصورة والحوادث ، ويفلح في خلق جو اسطوري سحري يحيل « مكادي » نفسها الى رمز للسعادة والحرية والجمال وكل الاشياء المتمناة التي لا تدرك . وعبد الباسط أنجح ما يكون حين يصور المعنويات . انه يجسدها ويحيلها الى اشياء صلبة ، كما في قوله « يحمل اثقال خيبته » فاضافة الثقل للخيبة من انجح التعبيرات عن الحالة النفسية للفاشل . والقصيدة ككل تورث دوار السفر وحسرة المتعب وتخطف حروفها الابصار بأناقتها ولمعان أضوائها ، ومن حيث موضوعها فان العقم والصخر أفضل رمزين يحملان معنى حياتنا ويصوران ظروفنا ، أما الخيبة فانها تلف انساننا من قمة الرأس الى الاخمصين .. فضلا عن انها موضوع الانسان المعاصر . وهي ايضا تمثل خاتمة المطاف في رحلة شاعرنا المنتحر . لقد رزئنا به شاعرا مجيدا عميق الاتصال بماضينا الشعري ، وفجعنا به شابا مثقفا حر الفكر نقي الضمير .. كما انني خسرت صديقا لم يكن أقرب منه الى قلبي في هذا الوطن وبين اناسه المزيفين . انه شاعر كبير كان يجب ان يؤثر تأثيرا عميقا في كل الجيل الصاعد من الشعراء ، لو اتيح له ان يطبع ديوانا واحدا من انتاجه الكثير .. ولسوف اعمل على جمع نتاجه وارتقب الفرصة لنشره .

*

من اعجب الامور ، انني وانا لا اهتم بالسياسة ، أظل على علم بدقائق ما يجري فيها ، عن طريق قصائد الاداب ، حيث أطلع على بيانات مفصلة لم تصدر عن جبهة التحرير او المراجع السياسية ـ العسكرية المختصة ، بل يكلف البعض انفسهم خدمة الله والوطن العربي ويقدمون لنا أدق التفصيلات عن الحوادث ، ففي الجزائر اعتقل المستعمرون الفرنسيون فتاة مناضلة جزائرية اسمها « جميلة بوباشا » ، ويؤخذ من قصيدة الاستاذ سليمان العيسى ان هذه البنت كانت (بسمة جديدة في شفة الخلود) أما في قصيدة (عرس اوراس) لنجيب سرور فان المعلومات عن الوضع أوفر ، اذ نعلم اننا « أمس للقمة شيعنا صبية » وان بقية البنات « هن أقسمن سيلحقن بنا .. هن .. كل الاخوت ! » ثم تعرض علينا لوحات للدمامة والتشويه والوحشية ، ثم تنتهي القصيدتان بتفاؤل مزهر ، كما يقتضي الادب النضالي منذ ان ابتدعه غوركي الى ان سن تقاليده الطيب الذكر .. جدانوف .

وقصيدة سليمان العيسى ، ككل انتاجه ، تحتوي على الكلمة

المستعملة ضمن حدودها المعنوية ، بدون ظلال ولا ايحاء ولا صور .. ولا عجب في ذلك فالقصيدة مصنوعة لتلقى على الجماهير ، اذا بقيت ثمة مناسبة . ونشرها فيما اظن انما هو من باب الاعلان عن الديوان، ان سليمان لا يكتب لنا ، ومحاكمته على أسس الشعر تظلمه وتظلمنا معه . يجب ان يدرس سليمان من خلال المرحلة والحوادث . انه تاريخ الفترة ١٩٤٠ وما بعدها .. لكنه تاريخ منظوم . وهو رجل ضحى بفنه في سبيل احداث شعبه ، في سبيل مواكبة هذه الاحداث. فلا يسعنا الا ان نحترمه كمناضل في سبيل قضيته ، واذا نظرنا الى القصيدة من كل هذه الاعتبارات ـ التي ارفضها ـ نجدها قصيدة وسطا جيدة السبك ، اما بمقياس المفاهيم الفنية الحديثة فانها لا تدخل في حيز الشعر . اما القصيدة التي تحاول ان تقدم نفسها بشكل حديث فهي (عرس أوراس) اذ انها تستخدم الاسطورة والرمز والصوت الجماعي ، فالاسطورة تتمثل في الطقس المصري القديم الذي يقدم فيه الفرعونيون عروسا للنيل كل موسم لاعادة الخصب والحياة في مياهه وفي ارض الوادي ، وهذا الطقس يعادل طقوس السوريين في موت أدونيس وبعثه . وهي الخطة التي يقتضيها الشعر الحديث منذ اليوت ، اذ ان الانسانية كل متكامل ، والماضي مستغرق في الحاضر والمستقبل والتعبير عن الانسان الحديث وعصره يقتضي الاعتماد على الفولكلور الشعبي والاساطير . هذا من حيث العرفان بالمنهج النظري .. اما التطبيق فشيء اخر ، يعتمد على موهبة الشاعر وحدسه وصدق تلقيه وانفعاله .. كما نذكر في قصائد السياب . على ان القصيدة عوضا عن ان تتحدث عن الطقوس لاثارة الجو الاسطوري تحدثت عن الامور المباشرة « كم على صدرك يا أرض الجزائر .. » وعوضا عن ان تتكلم عن روح الفداء والتضحية وتستبطن انفعالات العروس واستجابة النهر للضحية أعطتنا صور التشويه والتعذيب ساعية ـ كالافلام الايطالية ـ الى تملق عاطفة الشفقة والاحساس بالخوف ، وبذلك جاءت القصيدة لا هي من الشعر الحديث ولا من الشعر القديم !

ولا بد لي من الاشارة الى ان هذا الشعر الذي توحي به مناسبات عابرة ، ويستجيب له الكثير من الشعراء ، قد اصبح ظاهرة شائعة في ادبنا الحديث ، على انه كالرغوة التي تفور بسرعة وتنطفىء بسرعة اكبر . لقد نظم ما ينوف على الالف قصيدة في جميلة بو حيرد .. فماذا بقي ؟ ان سرعة الاستجابة تدل على ان الشاعر فقير يتصيد الموضوعات ، او انه شديد الايمان . وفي كل الاحوال ليست هذه التلبية العاجلة من مصلحة الفن .

« حلم قديم » لكامل ايوب تصف الانتظار الطويل لعانس من الطبقة الشديدة المحافظة ، التي تقنع بناتها من الدنيا بشباك ينتظرن خلاله اقدارهن . وكان من الممكن ان يمنح الشاعر لهذه القصيدة عمقا يرى من خلاله مأساة انتظار الحياة دون السعي الى بلوغها ، ويمكن ايضا ان تخرج القصيدة عن اطارها الفردي وتصبح عرضا لحياة جيل ، لكن روح التأمل التي تسيطر على امرأة في الشباك ، هذه الروح مفقودة من القصيدة ولذلك جاءت فقيرة عادية ، حتى رموزها او تشابيهها واستعاراتها قريبة من متناول الكاتب والقارىء . ويمكن ان نقول عن امثال هذه التعبيرات « رمان العود ، ورد الخد » انها تعبيرات مبتذلة مهترئة لم تعد تصلح للذة او للاثارة . ومع ذلك لا يزال يوجد من يعتمد عليها .

« هيروشيما .. على صدر افريقيا » انظروا معي الى هذه التراكيب اللغوية « حط الصمت على الحصوات الهودج » « لكن ما قتلت في هذا اليوم التاعس جذرا » ثم انتبهوا جيدا « يا رب يكون حكيما مات يرود الكون المجهول » « من أقبل أمن الساق على غدرانه » . هذه نماذج قد اكون مبالغا في انتقائها .. لكنها من اسلوب جيلي عبد الرحمن . ترى هل هذا هو اسلوب الشعر ؟ ام اسلوب النثر ؟ هل تعرف العربية مثل هذا التركيب : يا رب يكون حكيما مات يردد الكون المجهول » ؟ انا لم افهم منه معنى . انها كلمات اجتمعت بالصدفة . او كلمات لها معان قاموسية ولم تستطع ان تتفاعل لتؤدي لنا معنى اجماليا ينتج عن اجتماعها . ان الشعر لا يستسيغ الركاكة . ويظهر ان الشاعر لم يسمع بأن في العربية أدوات ربط تصل الافعال والجمل بعضها ببعض ، فتصبح جملته اذا ترجمناها الى العربية « يا رب قد يكون ثمة حكيم مات وهو يرود الكون » اما اذا كان يعرف هذه الادوات ويحذفها من اجل اقامة الوزن فتلك مصيبة أدهى وأمر . لان ذلك يعني انه شاعر غير مطبوع. والشاعر المطبوع هو الذي تنقاد له القوافي والكلمات والاوزان بحسب المعاني التي تجول في نفسه ويجيش بها خاطره .

هل اتحدث عن بقية القصيدة ؟ ان اجزاءها مفككة ، او بالاصح ملصقة الصاقا بدلا من ان تكون منبثقة انبثاق الفروع عن الجذع في الشجرة الواحدة . وليس أي صلة تصل بين المقاطع الثاني والثالث والرابع . اما الصور فانها عادية تعطي المعنى اكثر مما تعطي الانطباع :

افريقيا .. يا افريقيا ..
صدى صدرك أجهش بالنجوى يا أماه
قد شوه انسان نسمات الصحراء
أغلق عينيه على نبض الاشياء
نبش الزمن العاري والايام الرقطاء

انه تصوير من الخارج تسوده الروح التقريرية . هذا شعر ينقصه الاندفاع الصادر عن ايمان وتجربة . ينقصه ان يكون شعرا يمثل موقفا من الوجود وطموحا الى عالم أسمى .. رغم ان الشاعر يشتهي ان يبصر موت النخاس . ويظهر ان النفس الغنائي الفردي يطاوعه ، فهو ألين روحا وأسلس نظما حين يعبر عن الصوت المعين :

في وهران العمر قصير
طعم الزيتون مرير ..

فالقصيدة ليست على مستوى فني واحد ، فضلا عن ان الحشو يستهلك قسما كبيرا من حجمها ، مثل قوله « لكن يا أمي الغضبى.. أماه الساحرة التعبى » فأحد هذين الشطرين لا يكمل معنى الاخر ولا يتصل بما بعده من قول « والغابات .. الشلالات » ولو تقصينا القصيدة لاعيتنا معايب الاسلوب فضلا عن غيره .

« عودة الى الرفاق المتعبين » قصيدة في طريقها الى النضج .. عتاب على خيانته ، دفاع سلبي : « كلنا كان يخون » ، تعليل النفس بالنسيان وبالرفاق المتعصبين الى درجة انه لم يعد في طاقتهم ان يحاكموا . مصدر الضعف فيها انها لم تبرأ من الذاتية . ان الموضوع يجب ان ينفصل عن ذاتية الفنان ، وبعبارة اخرى ، فان التجربة يجب ان تعالج بشكل موضوعي ليست فيه اية ظلال شخصية ، لان

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

نقد القصائد

ـ التتمة من الصفحة ٨ ـ

الاثر الفني اذا ارتبط بشخصية الفنان غمض على القارىء وضعف اثره . ومن الجيد في هذه القصيدة بناؤها المتماسك ، فأجزاؤها تكاد تكون متوالدة عن بعضها ، ولا حاجة الى القول ان لغتها سليمة .

« المهزومون » : نستشرف في قصيدة الطيب الشريف أفقا فكريا واسعا ، وشاعرية خصبة مثقفة . انه يقذف عطش الروح كله منذ الجملة الاولى بجرأة وصدق ، كما انه يستطيع ان يصور الافراد التائهين ، يعطينا عذابهم وقلقهم وشوقهم :

ما ضر لو تفتق المجهول عن ملاذ
يحضننا في دفئه المجبول من قلوب الامهات
يضمنا يومين في سبات
فنحن وافدون من جزائر الارق
أحداقنا كرات فحم تدلهم في الفسق
وفي انسانها شؤبوب شوق يحترق
وينضح الدموع والعرق ...

ذلك شعر فيه صدق ومكابدة . الصور مدروسة ومنبثقة بعفوية في آن واحد مما يدل على انها تنطلق حسب منهج تعب الشاعر في تنظيمه والسير حسب خطته . وان كانت اللغة لا تسعفه ففي القصيدة غلطتان « تريد نستقر » و « يا نوم يا نسيان لو تحضنا رؤوسنا » . ولست ادري فيما اذا أصبحت مهمة الناقد تصحيح الاخطاء اللغوية أم ما زالت تدور في حدود المناقشات الجمالية والفكرية ؟

« أطفال أغادير » لست أدري لماذا تذكرني قصيدة محمد البخاري بمطلع قصيدة للسياب « من قاع قبري اصيح .. » اما بقية القصيدة فعادية .

انني احاكم القصائد على اساس ان ما يمكن كتابته نثرا لا يجوز ان يكتب شعرا . وهذا لا يعني ان هناك افكارا شعرية ونثرية انما يعني ان هناك تفكيرا شعريا . رؤيا شعرية تقدم العالم حسب موقف الشاعر من الوجود . كل قصيدة نافذة يجب ان تطل على الانسان والعالم من زاوية . وهذا يقتضي تكاملا في البناء من حيث الافكار والصور ، وتوترا خفيا ـ كما في قصيدة عبد الباسط ـ او توترا ظاهرا كما في قصيدة ـ الطيب الشريف ـ ثم لا يهم بعد ذلك أاستعمل الشاعر الاساطير او لجأ الى الصور او استخدم الفولكلور او لجأ الى التقرير . وسواء قدم الاديب احساسه شعرا حديثا او كلاسيكيا او نثريا . المهم ان ترتفع القصيدة الى مستوى الازمة ، الى مستوى الانسان . وهذه ليست دعوة للتجريد ، انما هي دعوة الى نبذ الجزئيات ، الى نبذ المحليات ، الى نبذ الحوادث الذاتية . ان الشعر اغناء للروح ، اطلاله على الابد ، تعميق للنفس وغور في اعماقها والا ما هذا الشعر الذي نقرأ ؟

استمعوا مقاطع من قصيدة احمد ابو عرقوب :

يا ليتني وجدت كنزا ناصع البريق
أحمله ملء يدي .. أهب الصغار
دمي ، ثيابا ، فرحة ازهار
يا ليتني رايت نور الله في الطريق ... الخ .

هذا المقطع انتقيته عن غير قصد . هل يرتفع عن مستوى الكلام العادي لانسان غير مثقف وغير موهوب ؟ ترى لو كتب نثرا هل يستحق صفحة من مجلة الاداب ؟ هل نذكر « الشعراء » بقول الخطيئة :

« الشعر صعب وطويل سلمه »

انني احتار في تعليل الجرأة على النشر . لقد اصبح الشعر عصارة تراث الانسانية . ونحن ما نزال نعلك كلاما بدون معنى في اغلب الاحيان ! ان الشعر طوفان يغرق القارىء ويذهله ويتحدى ثقافة الناقد ووعيه . فاين نحن من كل هذا ؟ بماذا يفترق المقطع السابق عن اغنية فريد الاطرش « يا ريتني طير لاطير حواليك » ؟ هل هي علة الشعراء ؟ ام انها علة امة لم تنفض عنها تخاذلها ؟ ان المستوى الثقافي الذي تفصح عنه اغلب هذه القصائد مستوى قريب من الجهل ، قريب من الربابة والعد والنواح . ليس هذا هو وعينا الذي نطلب . اما أن نتمرد على السبات أو أننا نخسر كل شيء .

دمشق — **محيي الدين صبحي**

رسالة الى مكادي

ـ التتمة من الصفحة ٢ ـ

الكناري الذي ابحر صبحا ، راعش الخلجة ، محموم الجبين
من روابي اسيا المستسلمات
لدجى افريقيا الكابي الحزين
حاملا قلبا عريض الامنيات
وصبا حرف ولحنا ، وصلاة
سوف لا تسمع من قيثاره العذب الرنين
ما تعودت : رهيف الاغنيات
سوف لا تسمع الا قمة سمراء
تذور خلفه مر الانين
فالكناري الذي أحرق جنحيه الهجير
والذي كنت رفيف الحلم في احداقه
ومثير الدفء في اعماقه
الكناري الذي هام يغنيك هوى اشواقه
عله يلقاك ظلا ، مرفأ يحميه من لفح السعير
طار لم ينبس بكلمه
قبل ان يلثم عينيك مكادي

★

لم يقل حتى وداعا يا مكادي
كان في الارض غريبا
ومضى عنها غريبا
فابكه مثلي مكادي
قل لغاباتك ان تبكي شبابه
لخيول الريح ان ترثي اغترابه
ان تحييه ، وتبكيه مكادي

★

فهو طير عربي من بلادي
حمل الحرف غميسا بمجادات البوادي
ومضى يغرسه في ارضك السمراء عربون وداد
كله يزهر حبا ، وسلاما يا مكادي

★

كان فوق القمة السمراء قمه
تتصبى طائر الحب الحزين
فمضى لهفان ، لم ينبس بكلمه

دمشق — **خليل الخوري**